الأنا والنحن

التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة

Rainer Funk

Ich und wir

Psychoanalyse des postmodernen Menschen

Deutscher Taschenbuch Verlag (dtv)
Januar 2005

راينر فونك

الأنا والنحن

التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة

ترجمة وتقديم:
حميد لشهب

الريموعمر

Jadawel جداول

الكتاب: **الأنا والنحن.. التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة**

المؤلف: **راينر فونك**

ترجمة وتقديم: **حميد لشهب**

جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 746638 1 00961 - فاكس: 746637 1 00961

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

شباط / فبراير 2016

ISBN 978-614-418-312-0

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2016 Beirut

طُبع على نفقة مؤسسة

ريم وعمر الثقافية

تقديم المترجم

شغلتنا ترجمة:«الأنا والنحن. التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة» لأكثر من سنتين كاملتين، تعلمنا فيها الكثير من الأمور، سواء التحليل نفسية في علاقتها بالتحليل النفسي الاجتماعي، كما نظر له إيريك فروم وطوره راينر فونك؛ أو الخلفية المابعد حداثية لثقافة الاستهلاك، التي فرضت نفسها ابتداء من منتصف القرن الماضي. الكتاب زاخر بمصطلحات تحليل نفسية جديدة، يحددها المؤلف في المواضع حيث يستعملها، طبقًا لإطار تحليل نفسي عام، مرجعه الأساسي هي المقاربة الفرومية، التي نجحت بالتأكيد على مدى سنوات من تحليل المجتمع الصناعي في عمقه؛ والتي أثرت فيما بعد في أجيال عديدة من الباحثين في العلوم الإنسانية، وبالخصوص علم النفس وعلم الاجتماع.

تكمن أصالة «الأنا والنحن. التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة»، بشهادة العديد من المتخصصين، في كونه أول محاولة علمية جدية استطاعت وصف إنسان ما بعد الحداثة في شموليته، وتحليل الأسس النفسية والاجتماعية التي تحدد هويته، وإزاحة الغطاء عن الثقافة المابعد حداثية في تجلياتها الاقتصادية، بدراسة الجذور الأيديولوجية لهذه الثقافة وشرح أخطر ما توصل إليه إنسان زماننا من استلاب وتغريب، عن ذاته وعن الآخرين.

تتشابك العوامل التي أدت إلى تكوين هذا الطبع المجتمعي المابعد

حداثي الجديد وتتعقد، مفرزة «توجه أنا» جديد كل الجدة، لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسانية، درسه فونك في هذا الكتاب باستفاضة وعمق، سيكتشفها القارئ والقارئة الكريمان خطوة خطوة مع المؤلف. وعلى الرغم من أن الكاتب والكتاب متخصصان، فإن فونك قد نجح في إيصال المضامين المختلفة لموضوع دراسته بلغة أكاديمية عالية الجودة في متناول جمهور عريض من المهتمين، وقد لقي هذا الكتاب إقبالًا كبيرًا عليه في العالم الجرماني أثناء صدوره، وما يزال محور اهتمام الكثير من الدوائر الأكاديمية، وما استدعاء فونك للمحاضرة في صلب موضوع الكتاب في العديد من المؤسسات الجامعية إلى حد الساعة إلّا شاهد إثبات على أهمية هذه الدراسة.

ما شجعنا على الاهتمام بترجمة هذا المؤلف إلى اللغة العربية هو كون ما يصفه الكاتب موجود بدرجات متفاوتة في بلداننا العربية والإسلامية. أُقحم الإنسان العربي المعاصر على الرغم من أنفه في عالم استهلاك سلبه بصره وبصيرته، بمعنى جرده من ملكاته العقلية، فاسحًا أبواب غرائزه الحيوانية البدائية على كثرتها أمام عدمية محققة، حتى ليُخيل للمرء بأن هذا الإنسان كلما زاد وعيًا بوضعه كإنسان، ارتفعت وتيرة لهفته على الاستهلاك الأعمى لما تقذف به معامل التصنيع في «السوق الحرة». ويصبح الاستهلاك إدمانًا، شأنه في ذلك شأن كل نوع آخر من الإدمان، عندما يصبح شعورًا لاواعيًا، يتمظهر في شكل قهري، يفرض على المرء الدوران الأزلي في حلقة مفرغة، تُفرغه من كل مقوماته الإنسانية، لا يشبع ولا يرتاح؛ بل كلما تخيل أنه شبع، كبر جوعه للاستهلاك أكثر.

يصبح الاستهلاك إدمانًا بالمعنى المرضي للكلمة، عندما تتجاوز

محاولة إشباع الرغبات عتبة ضروريات الحياة من مأكل ومشرب ولباس ومسكن، إلى الرغبة في الوصول إلى قمة الثانويات، ومُصاحبة هذه الرغبة بانفعالات وجدانية تتأرجح بين ضغط نفسي للحصول على هذا الثانوي وترجمة هذا الضغط في الواقع بسلوكات بعينها وبين الشعور بخيبة الأمل، وتجلي هذا الأخير في سلوكات ظاهرة للعيان. ولا تنحصر الثانويات في كل ما لا يساهم مباشرة في تلبية الحاجات البيولوجية للإنسان، أي الضروريات، بل إن هذه الأخيرة لم تعد منحصرة على ما هو أساسي بل أصبح فيها ما هو ثانوي أيضًا، يكون مرغوبًا فيه ويصبح الشغل الشاغل للإنسان.

للاستهلاك كإدمان، يعني كحالة مرضية حقيقية، أسسه العتيدة منذ الثورة الصناعية وظهور الفائض عن الحاجة ورغبة الرأسمال في تسويق هذا الأخير بكل الوسائل المتاحة. وبما أن منطق التصنيع قد تطور مع القرون من منطق تسويق الفائض عن الحاجة إلى منطق تصنيع ما ليس ضروريًّا البتة، وإيهام البشر بأن هذا اللاضروري هو أهم شيء للمستهلك، فإن إشكالية الاستهلاك كإدمان مرضي غير صحي، بل ومعدٍ، قد تأكدت. فبموازاة تطوير منطق التصنيع لأدوات الإنتاج وتنويع المنتوجات، طور آليات تسويق تستهدف في المقام الأول اللاشعور وشحنه بكل ما يسلب الإنسان ملكة التفكير ويحرمه منها، عن طريق تقنيات إيحائية، بل تنويم مغناطيسي معقد ومتشعب، يسقط في حباله حتى «أعقل» و«أفطن» و«أنقد» إنسان دون وعي. والنتيجة هو أن الإنسان يتوهم بأنه حر، لكنه في العمق مسلوب الإرادة، تفرض عليه مُستهلكات هو في الحقيقة في غنى عنها، لكن يتهيأ له بأنه في حاجة ملحة لها، ليس بالضرورة لكي

يعيش، بل ليكون كالآخرين، مقاومة منه للشعور بالدونية والإحساس الوهمي بالتفوق. أي بناء هوية مُصطنعة، قشورية، ما يهمها هو نظرة الغير لها، وليس الرضى الذاتي على النفس على أساس مقومات عقلية. بمعنى طغيان التفكير الوجداني على حساب التفكير المعرفي العقلي، وحيثما طغى الوجدان، طغى اللاشعور بجذوره الحيوانية العميقة، ليصبح الإنسان أداة طيعة في مهب ريح الاستهلاك الأعمى، العبد الطيع لسيده: «التصنيع».

تتجلى أعراض الاستهلاك كإدمان باتولوجي في سلوكات فردية وجماعية لا حصر لها، لا يسعنا في هذا المقام إلّا ذكر البعض منها. يقابل الادخار كقيمة شبه أخلاقية للأمس منطق التبذير والعيش فوق الطاقة، تحت وطأة الديون وما يترتب عن ذلك من ضغط نفسي واجتماعي. لم يعد المرء يخاف من الاقتراض، لأن هذا الأخير لم يعد يربطه بشخص معين، بل بمؤسسة مالية «مجهولة»، همها الأساسي المعلن هو «الدفع بالتقسيط»، ليعيش الإنسان «مرتاح البال»، أي في العمق عبدًا، ليس فقط لعمله، بل وأيضًا لهذه المؤسسة. يتمظهر إدمان الاستهلاك على المستوى الفردي في الهوس بكل ما هو جديد والرغبة الملحة في اجتهاد المرء لأن يكون من أوائل من يقتنيه، لأن هذا النوع من السبق يوحي له بأنه شخص استثنائي، على اعتبار أن منطق السوق يغذي وهم الانتماء إلى «النخبة». دون وعي منه، يجد الإنسان نفسه ضحية منطق منافسة استهلاكية، يقارن نفسه بأناس وهميين أو حقيقيين، لا تسمح له نفسه أن يكونوا «أحسن» منه. بمعنى أن ميكانيزم التعويض الذي يسمح به «قانون» الاستهلاك، يخفي في العمق الفقر الوجودي للشخص وعدم ثقته بنفسه ورضاه عنها.

يتمثل تمظهر الإدمان الاستهلاكي على المستوى الاجتماعي في نوع

من الهستيريا الجماعية من أجل اقتناء منتوج معين، كما يحدث عندما يسوق منتوج تكنولوجي لأول مرة أو عند بداية «مواسم» التخفيضات في المحلات التجارية، واكتظاظ المستهلكين على أبوابها. إضافة إلى هذا، فقد انزلق مفهوم «الزبون»، الذي كان يعني نوعًا من الوفاء لمحل أو بضاعة بعينها، ليعني حاليًّا «المستهلك»، الذي لا يعني أكثر من عابر سبيل، لا تهمه العلاقة الإنسانية في العملية التجارية بصاحب المحل، بقدر ما يهمه ما يقدمه له هذا المحل مما جد من البضائع. وبهذا، لم يعد صاحب المحل هو محور العلاقة التجارية اجتماعيًّا، بل المحل في حد ذاته، وبالخصوص إذا كان مقرونًا بماركة معينة.

ككل نوع من أنواع الإدمان، فإن للإدمان على الاستهلاك عواقب صحية لا يجب الاستهانة بها، لخطورتها بالنسبة للفرد وللمجتمع. فالضغط النفسي الذي ينتج عن هذا الوضع اللاصحي بالنسبة للفرد يُترجم في اضطرابات نفسية واضحة المعالم كالقلق المزمن الذي قد يفضي إلى الكآبة، بكل أعراضها الجسد ـ نفسية. أما على المستوى الاجتماعي، فإن حدة التنافس الصراعي على الاستهلاك، تؤدي إلى تعميق الصراع الطبقي، الذي يصل أوجه في الاعتداء العلني على ملك الغير والسرقة الموصوفة وتفشي الجرائم والشعور بانعدام الأمن أو انعدامه الفعلي. وأهم خاصية له كمرض اجتماعي هو عدم الحرج في استغلال السلطة، ولو كانت صغيرة، وقبول أو المطالبة بعلاوات ورشاوي والاتجار بالمخدرات بكل أنواعها واللجوء إلى النصب والاحتيال بكل وجوهه.

«إعلان الحرب» ضد الإدمان على الاستهلاك هو «إعلان للحرب» ضد اللاوعي الفردي والجماعي والرجوع إلى كفاءاتنا العقلية ومهاراتنا

الاجتماعية، لتخليص ذواتنا من أكبر استعمار فرض علينا، ألا وهو استعمار أرواحنا وعقولنا وأنماط حياتنا وسلوكنا؛ خاصة ونحن نعلم بأن القدر الأوفر مما نستهلكه لا ننتجه بأيدينا وليست لنا أية فكرة كيف وبماذا ولماذا ينتج.

حميد لشهب

فيلدكيرخ، النمسا

في 6 كانون الثاني/ يناير 2016 م

توطئة

لربما يوقظ عنوان هذا الكتاب «الأنا والنحن» تصورات مختلفة عن بعضها البعض. ليس المقصود بـ «الأنا» وبـ «النحن» مفاهيم فلسفية أو سيكولوجية مجردة، لكنها تعبير عن معيش أناس يكثر عددهم باستمرار. يقول الكثيرون اليوم بوعي تام «أنا» ويريدون عيش أناهم، دون أن يكونوا بذلك أنانيين.

ليس هناك فقط هذا «الأنا المنطوق» وهذا «الأنا المعاش»، الذي يعتبر بالنسبة للبعض ضروريًّا وبالنسبة للبعض الآخر غير مألوف. هناك أيضًا «معاش النحن» جديد، نوع جديد من التنشئة الاجتماعية والمعنى المشترك، يوجد في هذا «الشعور بالنحن»، الذي لم يعد بإمكان البعض الاستغناء عنه، لكنه ينظر له آخرون بريبة، يمجده البعض كشعور جديد بالمسؤولية، أُسيء فهمه.

طبقًا لهذا الفهم التحليل نفسي الذي اخترناه هنا، فإن كلا الشكلين الجديدين لـ «معاش الأنا» و«النحن» ناتجان عن «توجه أنا» جديد، سنصفه ونتقصى معناه في هذا الكتاب. المقصود بـ «توجه الأنا» هو مطلب نفسي أساسي، توجه للطبع جديد، يطبع باستمرار فكر وإحساس وسلوك الناس، المطبوعين بدورهم بأنماط عيش وعوالم بعد حداثية.

قد يعتقد المرء عند شرح شخصية ولخاصيات الطباع لإنسان المابعد الحداثي بأنه لكل الناس توجه لـ«الأنا». يعاني كل علم للطباع في محاولته

إخراج ما هو خصوصي في الطبع بطريقة من الطرق، وكأن ليس بعد هذا الخصوصي أي شيء آخر يذكر. لابد أن نعرف بأن توجه «الأنا» لا يوجد حاليًّا حسب الأبحاث التجريبية إلّا عند ثمانية إلى أحد عشر بالمئة من الناس في ألمانيا. ونجد هذا التوجه بالخصوص عند الناس العاملين في إخراج عوالم حياة وفي الإعلام، وبهذا يكون حضورهم في الساحة العامة/ العمومية أقوى.

يلاحظ عند أغلبية الناس خليط من توجهات الطبع المختلفة، وبما أنها توجهات طبع فمن اللازم فهمها دائمًا كمتطلبات أساسية معاشة بغريزة، ولهذا السبب فإنها تشرح لماذا يكون الكثير من الناس في هذه المرحلة الانتقالية لهذا الزمان غير واضحين ومتناقضين في سلوكهم.

سوف لن أتطرق هنا إلى الدراسات الميدانية لهذه الملاحظات ولمعاني التحليل النفسية لتوجه «الأنا»، على الرغم من أنني كنت عضوًا في مجموعة عمل تجريبية لمعهد العلوم الاجتماعية للإشكاليات الحالية بمانهايم Mannheim، التي كان موضوعها توجه الطباع المابعد حداثي، وهذا ما نحلله في هذا الكتاب. وسينشر باحثون آخرون شاركوا في هذه الدراسة دراساتهم في المستقبل القريب.

فهمت في إطار عملي في مجموعة العمل هذه الكثير عن «الوسط المابعد حداثي»، الذي درس منذ تسعينيات القرن الماضي عن طريق يورغ أولتسهوفر Jörg Ueltzhöffer، الذي اكتشف نمودج «الوسط الاجتماعي» وهو إلى جانب هذا مدير معهد العلوم الاجتماعية للإشكاليات الحالية بمانهايم. فقد استفدت منه ومن غيرد مير Gerd Meyer ورولف فرانكنبيرغ Rolf Frankenberg، اللذين كانا أيضًا في مجموعة العمل هذه، فيما يخص دراستي هذه حول الخاصيات الشخصية للإنسان المابعد حداثي.

فقد ساعد العمل المشترك في اختيار روائز items البحث التجريبي لدراسة الطبع المابعد حداثي، كما ساعد تبادل وجهات النظر الغني وبالخصوص مع غيرد مبير، على التمييز الدقيق بين ما يجمع وما يفرق الإشكاليات السوسيولوجية والتحليل نفسية.

أشكر كل الذين تناقشت معهم والعارفين لأعمال إيريك فروم، ذلك أنني طورت هذا التوجه الجديد للطباع عن طريق أعماله التحليل نفسية والسيكو ـ اجتماعية. وأخص بالذكر هنا بالنيابة عن أعضاء الجمعية العالمية لإريك فروم للخمس عشرة سنة الأخيرة غيرد مبير من توبينغن Tübingen وبيرنت سالر Bernd Sahler من فرايبورغ و ميكائيل ميككوبي Michael Maccoby من واشنطن وسالفادور ميلان وسونيا غويمان من ميسيكو سيتي وفولفغانغ ج. فيبر من إنزبروك وبيتر كورون من بريمين.

عندما تناقش الأفكار لمدة طويلة وتنضج وتتخذ شكل كتاب، فإنها تكون في حاجة إلى المزيد من التمحيص والمراجعة النقدية. وأشكر في هذا المقام زوجتي ريناطا أوكتر ـ فونك Renate Oekter-Funk وابني مارتين Martin ويان ديتريخ Jan Dietrich على اقتراحات التعديل وتصحيحاتهم لمسودة هذا الكتاب. وقد شجعتني دار النشر **Deutscher Taschenbuch Verlag** على إصدار هذا العمل، وأخص بالشكر هنا د. أندريا فورلا Dr. Andrea Wörle وهانالورا هارتمان Hannelore Hartmann، اللتين خصصتا الكثير من الوقت للتصحيح اللغوي النهائي لهذا الكتاب.

راينر فونك

توبنغن، صيف 2004م